شعر وصف الحمّامات في القرنين السادس والسابع الهجريين؛ دراسة موضوعيّة

الدكتور مشهور عبد الرحمن الحبّازي*

الملخّص

تناولت هذه الدراسة "شعر وصف الحمّامات في القرنين السادس والسابع الهجريين؛ دراسة موضوعيّة". تطور الحمّامات في الحضارة العربية الإسلاميّة، وانتشارها بين أبناء المجتمع؛ عامتهم وخاصتهم، وتنوّعها. ثم درست شعر وصف الحمّامات في ستة محاور رئيسة: وصف بناء الحمّامات، ووصف أدوات الحمّام، ومتعلّقاته، ووصف الحمّاميّ، والغزل بزوّار الحمّامات، وهجائها، وهجاء الحمّاميّ. وهي دراسة بكر في موضوعها، ففي حدود علمي، ليس هناك دراسة مستقلة لهذه الظاهرة في هذه المدة الزمنية من تاريخ أدبنا العربي.

وقد اعتمدت الدّراسة المنهج التاريخيّ في تَتَبُّع شعر الحمّامات، وتحديد زمن حياة الشاعر. والمنهج الوصفيّ التحليليّ في توضيح الأوصاف التي استخدمها الشعراء في وصف الحمّامات، ومتعلّقاتها.

وخلصت الدراسة إلى أنّ الحمّامات كانت مظهراً عمرانياً وحضارياً شائعاً، فأقبل كثير من الشعراء على وصفها ما شكل موضوعاً شعرياً جديداً يحتاج إلى دراسة موسعة. و قد كثرت في هذا الشعرالتشبيهات، ورسم الصّور الحيّة، كما أنّ غزل الشعراء بزوّار الحمّامات كان مادياً، وتوزع هجاؤهم للحمّاميين على سوء صفاتهم الخلْقية، وعدم إتقانهم أعمالهم.

---

* دائرة اللغة العربيّة وآدابها- كلية الآداب- جامعة القدس

مقدمة:

الوصف غرض مهم من أغراض الشعر العربي، وقد أكثر منه شعراء العصور السابقة لحقبة الدراسة، حتى قال ابن رشيق القيراونيّ فيه: "الشعر إلا أقلّه راجع إلى باب الوصف، فلا سبيل إلى حصره واستقصائه"[1]. فيما عدّه بكري شيخ أمين عمود الشعر وعماده، وردّ كل أغراض الشعر إلى الوصف، وذلك في تحليل مفيد له خلص منه إلى إدخال جميع أغراض الشعر تحت شعر الوصف[2].

وقد اهتم الشعراء عبر العصور الأدبية المتلاحقة بوصف الطبيعة الصّامتة، والمتحرّكة، والصناعيّة. وفي حقبة الدراسة توسَّع الشعراء في غرض الوصف توسّعاً يلحظه كلّ من يتَتَبّعُ دواوين الشعراء المنشورة، أو كتب التراجم والأدب التي أوردت شعراً من شعر شعراء حقبة الدراسة، فضلاً عن ظهور كتب أدبيّة معنية بإبراز شعر الوصف في موضوعات حياتيّة متنوّعة، وكثير منها كانت موضوعات جزئية من مخترعات مرحلة الدراسة ومنها: "بدائع البدائه"، و"غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات" لعلي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة (613/1216). و"الكشف والتّنبيه على الوصف والتشبيه" لصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة (764/1362). و"مطالع البدور في منازل السرور" لعلي بن عبد الله الغزولي المتوفى سنة (815/1412)، و"صحائف الحسنات في وصف الخال" لمحمد بن حسن النَّواجي المتوفى سنة (859/1454)، وغيرها.

وقد لاحظت من خلال دراستي للشعر والشعراء في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين اهتمام الشعراء بوصف كثير من

---

(1) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 1059/2.

(2) انظر: أمين، بكر شيخ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص149.

مظاهر الحضارة الإسلامية، ولاسيَّما المظاهر العمرانية مـن: مـدارس، ومـساجد، ومنازل، ومَشَافٍ، وحمّامات، وغيرها.

ووجدتُ من خلال تَتَبُّعي لما قاله الشّعراء في وصف هذه المظاهر العمرانيّة، أنّ عدداً غير قليل من الشعراء اهتم بوصف الحمّامات من جوانب عديدة، وحـاولوا فـي شعرهم الترويج لها بين أبناء المجتمع المسلم؛ خاصتهم، وعامتهم.

من خلال بحثي تجمّع لديّ كم جيّد من الشعر الذي قيل في وصف الحمّامـات، فرأيت أنّه يستحق الدّراسة في بحث علمي. وقد درسته على النحو الآتي:

معرفة العرب بالحمّامات:

عرفت البلاد العربية الحمّامات منذ الأيام الأولى للفتوحات الإسلاميّة فـي بـلاد الشام، والعراق، وفارس، ومصر، فأقيمت في العواصم، والحواضر، وعلـى طـرق القوافل للطّهارة، والاغتسال من الجنابة قبل أداء الصلاة[3].

وما ورد في حديث الرسول صلّى الله عليه وسلم يؤيد هذا؛ إذ يروى عن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنها ستفتح لكـم أرض العجـم، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمّامات، فلا يدخلنّها الرجـال إلاّ بـالإزار، وامنعـوا النساء إلاّ مريضة أو نُفَساء))[4]. ويتضح من الحديث الشريف أنّ العرب المسلمين في الجزيرة العربيّة عرفوا الحمّامات بمجرد فتحهم أرض العجم؛ إذ كانت معروفة لـديهم لما كان لديهم من حضارة، ومدنية، واستقرار، ووفرة مياه.

وقد أخذ العرب المسلمون الحمّامات من البيزنطيين، لكنهم لم يَقْصرُوا الحمّامات على الحكام، والأثرياء، والموسرين كما كان لدى العجم، بل حوّلوها إلى مكان شعبيّ

(3) انظر: الحسين، قصي، الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني، ص279.
(4) الشوكاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، م1ج438/1.

يدخله خاصة الناس وعامتهم على حدّ سواء، وبدل أن كانت عند العجم وسيلة من وسائل اللهو، والترفيه، والمتعة، فإنَّهم جعلوها حاجة عامة للمسلمين، وتسهم في مساعدتهم على القيام بواجباتهم الدينيّة[5].

وقد انتشر بناء الحمّامات بكثرة في الحواضر الإسلامية الكبيرة، وازدادت الحمّامات في حقبة الدّراسة بشكل لافت للانتباه جعل الشعراء يهتمون بها، ويتّخذونها موضوعاً يقولون فيه، فقد ذكر ابن جبير في رحلته إلى المشرق الإسلامي في الربع الأخير من القرن السادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ معلومات قيّمة عن جوانب عمرانية كثيرة في المدن التي زارها، ومنها الحمّامات، فقال عن بغداد عاصمة الخلافة الإسلاميّة العباسيّة: إنَّ الجانب الشرقي من بغداد يحتوي على سبع عشرة محلّة (حيّا) وكل محلّة مدينة مستقلّة، وفي كلّ واحدة منها الحمّامان، والثلاثة، والثمانية. ثم ذكر حمّامات بغداد كلّها فقال: إنها لا تحصى عِدَّةً، وإنّ أحد شيوخها ذكر له أنّ بين شطري بغداد الشرقيّ، والغربيّ نحو ألفي حمّام، وأن أكثر حمّاماتها مطليّ بالقار، مسطّحة به بحيث يُخيّل للناظر أنّه رخام أسود صقيل[6]. وذكر المقريزي أنّ الحد الأدنى لعدد الحمامات في بغداد كان نحو الألفي حمّام، وذلك على أيام الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن (ت 622/1225)[7].

(5) انظر: الحسين، قصي، مرجع سابق، ص280.

(6) انظر: ابن جبير، المصدر نفسه، ص162-164.

(7) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، 536/2.

(8) انظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص202.

(9) انظر: ابن شدّاد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1 قسم313/1-323.

وكان في دمشق وأرباضها ما يقرب من مئة حمـــام، وأربعـــون داراً للوضـــوء يجري الماء فيها كلها[8]. وفي حلب ذكر ابن شدّاد أنه كان فيها ســـنة (1258/657) نحو مئة وستة وتسعين حماماً منها العام والخاص[9].

أما في مصر، فقد ذُكر أنَّ أول من بنى الحمّامات بالقاهرة، هو العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معدّ الفاطمي (ت 996/386). وكان في مصر الفسطاط ألف ومئة وسبعون حمّاماً في العهد الفاطميّ، فيما كانت في سنة (1286/685) تقرب من ثمانين حمّاماً[10].

وجرّاء انتشار الحمّامات في العالم الإسلامي أصبح الحمّام من شـــروط المـــصر (البلد)، فلا يسمى المصرُ مِصْراً إلاّ إذا وجـــد فيـــه الحمّـــام، والـــوالي، والقاضـــي، والطبيب، والجامع، والسوق والنهر[11].

تنوّع الحمّامات:

وُجدت أنواع عدّة من الحمّامات في العالم الإسلامي، ومنها:

1- **الحمّامات العامة**، وهذه يرتادها عامّة الناس، وكانت تبنـــى فـــي الأســـواق العامة، والحارات، والبساتين[12]. وبعض هذه الحمّامات كان خاصاً بالرجال، وبعضها الثاني كان خاصاً بالنساء[13]، فيما كان بعضها الثالث يُخصّص للرِّجـــال فـــي أوائـــل النّهار، ثم تعقبهم النّساء من بعد، مثل: حمّام خوند بالقاهرة[14].

---

(10) انظر: المقريزي، مصدر سابق، 536/2.

(11) انظر: الحيمي، مصدر سابق، ص91.

(12) انظر: ابن شداد، مصدر سابق، ج1 قسم313/1- 323.

(13) انظر: المقريزي، مصدر سابق، 537/2.

(14) انظر: المقريزي، مصدر سابق، 541/2.

2- **الحمامات الخاصــة**، وهذه كان ينشئها الخلفــاء، والــسلاطين، والأمــراء، والأثرياء في قصورهم، وبيوتهم الضخمة. وكان بعضها يبنـــى بمواصـــفات شـــديدة الاتقان، وترسم فيه صورة منكرة، وقد أورد صاحب مطالع البدور وصفاً خيالياً لحمّام بُني في دار شرف الدين هارون بن محمد الجويني المتوفى سنة (1286/685)(15).

3- **الحمامات الوقفية**، أنشأها الخلفــاء، والــسلاطين، والأمــراء، والأثريـــاء، وأَوقَفُوها على فئةٍ من الناس، مثل: حمّام الصوفية بالقاهرة الذي بناه صـــلاح الـــدين الأيوبي، وأوقفه على صوفية الخانقاه الصلاحيّة المسمّاة ســعيد الــسعداء(16). ومنـــع اليهود والنصارى من دخولها.

4- **حمّامات أهل الذمة**: كان أهل الذمة في أول الأمر يدخلون حمّامات المسلمين على أن يضع النّصارى في أعناقهم الصُّلبان، واليهود الجلاجل. وفي القرن الـــسادس الهجري أفردت لهم حمّامات خاصة بهم، ولم يعودوا يدخلون حمّامات المسلمين -على الأرجح- إذ إنّ منع صلاح الدين النّصارى واليهود من دخول حمّام الصوفية(17) يفيد أنه كان مسموحاً لهم دخول حمّامات المسلمين العامة، لكنّه منعهم من دخول الحمامات الوقفية.

(15) انظر: الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، 2/316-317.

(16) انظر: المقريزي، مصدر سابق، 2/554. والخانقاه: مكان يختلي فيـــه المتـــصوفة لعبـــادة الله، ظهرت في حدود سنة 1009/400، ولها أصل في السنة النبويّة الشريفة. وهي لفظ فارسي معنـــاه في الأصل المائدة، أو المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلق على الدور الضخمة التي يبنيها الملوك والأمراء المتحمّسون للدين لأغراض شتى. وسعيد السعداء هذا من أســـاتذة الخـــدام فـــي القـــصر الفاطمي، كانت داره مقابل دار الوزارة، حوّلها صلاح الدين الأيوبي إلى دار الفقـــراء الـــصوفية الواردين إلى مصر، ووقفها عليهم سنة 1173/569. انظر: حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكريـــة في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ص104-107.

(17) انظر: ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص53.

أما بناء الحمّامات، فقد حافظ العرب المسلمون على هيكل الحمّام العام، وتصميمه البيزنطي، مع إدخال تعديلات في زخارفه، وزينته، ونقوشه بما يتناسب والأحكام الشرعيّة الإسلاميّة التي تحرّم تصوير ما فيه روح، وما يثير الشهوة. كما حافظوا على عدد قاعاته، والمسافة بين أقسامه. وقد تحدّث عن بنائه، وصفاته كثير من الباحثين، لكن لا مجال لتفصيل حديثهم هنا(18).

وقد أثار ارتياد الناس خاصتهم، وعامتهم للحمّامات، قضايا فقهية عديدة تتعلق بحلّ دخولها للرِّجال، والنساء، أو حرمتها، وظروف الدخول، وآدابه، وأوقاته. وقد ذكر عدد من الباحثين موقف الفقهاء من دخول الحمّام بالتفصيل، لا مجال لإيراده هنا(19)، لكن لا بأس من إيراد رأي شيخ الإسلام ابن تيميّة المتوفى سنة (1327/728)، فقد عرضت عليه كثير من المسائل الفقهيّة المتعلقة بالحمامات وأفتى فيها، وممّا افتى به: أنّه يحرم على الرِّجال دخول الحمّام بلا مئزر، ونهى النساء من دخوله مطلقاً إلاّ نُفَساء أو مريضة، وهي مستورة العورة. وعلى ولاة الأمور النَّهي عن ذلك، وإلزام الناس بأن لا يدخل أحد الحمّام مع الناس إلاّ مستوري العورة، ومن يخالف الله، ورسوله، وولاة الأمر يعاقب(20).

شعر وصف الحمّامات

يتضح من التمهيد السابق أنّ موضوع الحمّامات في الحضارة العربية الإسلامية تشعّب كثيراً، فالحمّامات كثرت في الحواضر العربيّة الإسلاميّة، وتنوّعت، وكثُر

(18) انظر: الغزولي، مصدر سابق، 2/312-317؛ الحيمي، مصدر سابق، ص35- 45؛ الحسين، قصي، مرجع سابق، ص280-281.

(19) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، 1/129-130، 2/339-340؛ الغزولي، مصدر سابق، 2/311-313؛ الحيمي، مصدر سابق، ص33-51.

(20) انظر: ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، م 21/336- 340.

روّادها، وأثارت جدلاً بين الفقهاء حول كونها حـلالاً أو حرامـاً، وآداب دخولهـا، ومنكراتها، وغيرها من الأمور المتعلّقة بها.

ولا شك في أنّ هذا المظهر الحضاريّ المتمثّل في الحمّامات، وما تركه من أثر في المجتمع العربيّ الإسلاميّ، وجد له صدى واسعاً في شعر شعراء مرحلة البحث، بحيث قال كثير من الشعراء شعراً وصفوا فيه الحمّامات، ومتعلّقاتهـا مـن جوانـب عديدة، أهمها:

أولاً- وصف الحمّامات بعامة

قال عدد من الشعراء شعراً كثيراً في وصف الحمّامات، فذكروا فـي شـعرهم جملة من الصفات الحميدة، التي كانوا يفضلون وجودها في الحمّامات التي يرتادونها، وتبعث في نفوسهم الرضى والسرور، والمفاخرة بها، وقد درست ما قالـه الـشعراء على وفق الترتيب الزمنيّ لوفياتهم – ما استطعت- وذلك على النحو الآتي:

1-قال ابن الخازن، أحمد بن محمد البغدادي (ت 1124/518) يصف حمّـام صَديقِهِ أبي القاسم الأهوازي، الذي كان قد أضافه يوما، وزاد في خدمته وكـان فـي داره بستان وحمّام فأدخله إليهما، فقال ابن الخازن من مقطوعة(21):

ودخلـــتُ جنّتَـــهُ وزرتُ جحيمَـــهُ فـــشكرتُ رضـــوانا ورأفـــةَ مالـــكِ

فالبستان في نعيمه جنّة يخدمها رضوان، والحمّام في حرارته، وسـخونة مائـه جحيم يخدمه مالك، لكنّه - على غير عادة الملك خازن جهنم- كان رؤوفاً به.

2- وقال ظافر بن القاسم الإسكندري، المعروف بالحدّاد (ت 1133/528) شعراً كثيراً في وصف حمّامات مصر، فمدح الحسن الممتع منها، وذمّ السّيئ المؤذي، وقـد رأى أنها نعمة من الله. قال في الإشادة بمبدعها، وأهمية وجودها للإنسان(22):

(21) الحيمي، مصدر سابق، ص57.

يــــا رعَـــى اللهُ مُبــــدِعَ الحمّـــامِ فلقـــدْ فـــاقَ حكمـــةً فـــي الأنـــامِ

روضةُ العينِ لــذّةُ العقــلِ والحــســـ ـــنِ جِـــلاءُ القُلـــوبِ والأجـــسامِ

لو توَقَّى امــرؤٌ بــشيءٍ مــن المــو تِ لكانـــت أَحْـــرى بـــدفعِ الحِمـــامِ

إنه يرى أنّ من أبدع الحمّام أوتي حكمة فائقة لما لها من أثر كبير فـي صـحة الإنسان، وصفائه النفسيّ، والبدنيّ، بل ذهب أبعد من هذا الأثر الحسن للحمّـام، فلـو كان بمقدور المرء أن يتقي الموت بشيء لالتجأ إلى هذا الحمّام، ليدفع عنه الموت.

وقد وصف الحمّام وصفاً شاملاً في قصيدة رائعة سهلة من أحدَ عشَر بيتـاً، قال(23):

للهِ حمّـــــام كـــــروضٍ أنيـــــق رافقَنــــي فيْــــه رفيـــقٌ رقيـــقْ

صَـــفا لـــيَ العـــيشُ بهـــا مثلمـــا صَـــفا لقلبـــيَ ودُّ ذاكَ الـــصَّديقْ

تَناســـبتْ شخـــصا وخُبْـــراً فمـــا للـــذمِّ والعيْـــبِ إليهـــا طريـــقْ

أَحرَّهـــا الوقّـــادُ حتـــى غـــدا مـــنْ أَجْلِهـــا للـــروحِ مثـــل الـــشَّقيقْ

فالمـــاءُ فيهـــا كحيـــاةٍ جَـــرَتْ بها العــوافي والــصِّبا فــي العــروقْ

تحـــتَ بخـــارٍ عَطـــرٍ مثلمـــا شُـــيْبَ بمـــاءِ الـــوردِ مـــسْكاً فتيـــقْ

راقـــتْ حياضـــاً فأقـــلُّ القَـــذى فيهـــا كـــشمسٍ تحـــتَ غـــيْمٍ رقيـــقْ

خـــصّتْ بـــألوانِ الرُّخـــامِ الـــذي لـــه بهـــا كـــلُّ طـــرازٍ دقيـــقْ

---

(22) الحدّاد، الديوان، ص268.

(23) الحدّاد، المصدر نفسه، ص223-224.

فأعجبُ الأمرِ شموسٌ بها طالعةٌ دائمةٌ في شُروقْ
فالنفسُ منها في سرور كما سرَّ سرورَ القلب شربُ الرّحيقْ
فقد وَدِدْنا أنَّ أعمارنا فيها صبوحٌ دائم أو غبوقْ

في هذه القصيدة يصف ظافر الحدّاد حمّاماً زاره برفقة صديق عزيز عليه، فهي روض أنيق، طاب له العيش بها، إذ وجدها كما وصفها له بعض أصدقائه، وفيها وقّاد، وهو عامل موكل بزيادة حرارة الماء لتناسب المستحمين، فردّت مياهُها له عافيته، وصباه، وبخارها يُعطّر ماؤه بالروائح الذكية. وحجراتها رائقة حسنة الإضاءة؛ ضوؤها كضوء الشمس يتسلّل بين غيوم خفيفة، ورخامها ذو ألوان جميلة، وهذا كله يجعل روّادها مشرقين كالشموس، مرتاحي النفوس، منشرحي الصدور. ويختم القصيدة بتمنّي زيارتها صباح مساء؛ لأن لذّة البقاء فيها تعدل لذّة شراب الصباح والمساء. ويلاحظ هنا أنه وصف الحمّام بصيغة المؤنث.

وقال من قصيدة مكونة من اثني عشر بيتاً كتبت على جدر حمّام الكافوري بالإسكندرية، وفيها يصف الحمّام بأوصاف جديدة، قال[24]:

صحةٌ في سلامةٍ ونعيمٍ وبقاءٌ في عزِّ مُلْكٍ مُقيمِ
طابَ هذا الحمّامُ واجتمعَ الحسـ ـنُ إليه في جملةِ التقسيمِ
فهوَ مثلُ العروسِ تُجلىَ على الأبـ ـصارِ زهوا في حلّةٍ منْ رقيمِ
فيه حُسْنٌ بادٍ وحسنٌ خفيٌّ ليسَ يبدو إلاّ لكلّ حكيمِ
وشموسٌ قدْ جاورتْها بدورٌ ونجومٌ لكنْ بغيرِ رُجومِ
وسيولٌ تفيضُ بالحارِ والبا ردِ لكنَّها بغيرِ غيومِ
وبُخارٌ كأنّه نكهةُ المعْـ شوقِ في أنفِ عاشقٍ محرومِ

(24) الحدّاد، مصدر سابق، ص272-273.

وطيـــورٌ تكـــادُ تـــشدو وَوُحْـــشٌ رُتّـــعٌ فـــي فواكـــهٍ وكُـــرومِ
وقيـــانٍ تكـــادُ تُفْـــصحُ بالإيـــــ ــــقاعِ بـــين الثقيـــلِ والمزْمـــومِ
وحيـــاضٌ راقـــتْ ورقّـــتْ فأبـــدتْ كـــلَّ ســـرٍّ فـــي ضـــمنِها مكتـــومِ

في هذه القصيدة يجعل ظافر الحدّاد الحمّام مكانـاً للـصحة، والنعـيم، والحيـاة الملوكية، لطيبه وحسن تخطيطه، ثم يجعله كالعروس ليلة جلوتها، مقرّراً أن حسنه لا يعرفه إلا الخبير العالم بالحمّامات. وروّاده مثل: الشموس، والبدور، والنجوم، لكن من غير أذى يلحق بهم. ومياهه الباردة والحارة تتدفق كالسيول، وتملؤه رائحـة البخـار الذكية. وبعد ذلك يأتي بأوصاف جديدة، فهو يصف الصور التي زُينـت بهـا بعـض حجرات الحمّام وجدره. وذلك على الرغم من أن الفقهاء يحرّمون تـصوير الإنـسان، والحيوان، وما يثير الشهوة[25]. ومن هذه الصور: الطيور التـي تكـاد تغـرّد لدقـة رسمها، والظباء، وبقر الوحش وغيرها من الحيوانات الراتعة في المراعي، والمغنّيات الجميلات اللواتي يكدن ينطقن بأنواع الغناء لحسن رسـمهنّ، والبـساتين الخـضراء المزهرة الرائقة، وهو في ذلك يأخذ بما قاله الأطباء من أنَّ نظر المستحم إلى الصور الجميلة من: عاشق ومعشوق، وبساتين، ووحوش، وقيان يقوّي قوى البدن الحيوانيّـة، والطبيعيّة، والنفسيّة[26].

ووصف حمّاماً آخر، وتعجّب من حسنه، وجمعه بين المتناقضات في مقطوعـة أخرى من أربعة أبيات[27]. وفي مقطوعة ثانية من خمسة أبيـات وصـفه بـصفات جديدة، قال[28]:

(25) انظر: ابن تيمية، مصدر سابق، م300/21؛ الغزالي، مصدر سابق، 339/2.
(26) انظر: الغزولي، مصدر سابق، 315/2.
(27) انظر: الحدّاد، مصدر سابق، ص273.
(28) انظر: الحدّاد، مصدر سابق، ص361.

برٌّ وبحــرٌ جفــاهُ الــوحشُ والــسَّمكُ معنَى الجنــانِ بــهِ والنّــارُ مــشتَركُ
لا يطــرُقُ القمــرانِ الــدهرَ ســاحتَهُ بــلِ البــدورُ بــه والــشمسُ والفلَــكُ
يكــسو المقــيمَ بــه ذُلاً ومكرمــةً فيــستوي فيهمــا السَّفْــسافُ والملــكُ
ســماؤُه الأرضُ ذاتُ الزّهــرِ مونقــةٌ والأرضُ فيه ســماءٌ مــا لهــا حبُــكُ
يَلقــاكَ مــن بابــهِ عمــروٌ وعنتــرةٌ فيَــسْلبانكَ مــا تحــوي وتمتلــكُ

حمّام ظافر الحدّاد في هذه المقطوعة: برٌّ لا وحوش فيه، وبحر لا سمك فيه، وذلك كناية عن سعته، وعدم وجود ما ينغّص على روّاده، وفيه صفات الجنة والنار، ولاتدخله الشمس ولا القمر، ومع ذلك فهو كثير الأضواء بما فيه من روّاد مثل: البدور، والشموس، والفلك، وفيه يذلّ الإنسان ويكرم، ويتساوى الحقير والملك، وسقفه كالأرض تزيّنها الأزهار، وأرضه صافية كالسماء من غير طرق للنجوم، ويقوم على خدمته خادمان قويّان شجاعان يحفظان ممتلكات المستحمين.

3- **ووصف علي بن يحيى المعروف بابن الذرويّ**(ت577/1278)، حماماً دخله، وما فيه من ملذّات الحياة، فقال[29]:

إن عــيشَ الحمّــامِ أطيــبُ عــيشٍ غيَــرَ أنّ المقــامَ فيــه قليــلُ
فهو مثلُ الملــوكِ يُــصفي لــكَ الــودْ دَ قلــيلاً لكنّــهُ يــستحيلُ
جنّــةٌ تكــرَهُ الإقامــةَ فيهــا وجحــيمٌ يلــذُّ فيــه الــدّخولُ
فكــأنّ الغريــقَ فيــه كلــيمٌ وكــأنّ الحريــقَ فيــه خليــلُ

هنا يبدع الذرويّ في وصف ملذات الحمّام ومتعه، فعيشه أطيب العيش، وهو يصفو لنزلائه صفاء الملوك لزوّارهم، وهو جنّة يكره الإنسان الإقامة الدائمة فيها، وجحيم يحبُّ الناس دخوله، والناس تغرق في مائه غرق موسى الكليم عليه السلام، وتحترق بسخونة مائه احتراق إبراهيم الخليل عليه السلام، إذ في ذلك صحة أبدانهم

(29) ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص335.

ونجاتهم من الموت. وفي الشطر الأول من البيت الأخير إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وإذْ فرَقْنا بكمُ البحرَ فأنجيناكُمْ وأغْرَقنا آلَ فرعونَ وأنتم تنظرون ﴾(30)، أو من قوله تعالى ﴿ وأنْجيْنا مُوسى ومنْ معَهُ أجمعين، ثُمَّ أغرقْنا الآخرين ﴾(31). وفي الشطر الثاني من البيت الأخير إشارة إلى قوله تعالى ﴿ قالوا حرِّقوه وانصُروا آلهتكُمْ إنْ كُنْتم فاعلين، قُلنا يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيمَ ﴾(32).

4- ووصف سبط ابن التعاويذي، محمد بن عبيد الله (ت 1187/583) حمّام صديقه عز الدين في بغداد، فقال(33):

حمّامُ دارِكَ جنّةٌ لنَزيْلِهِ ما شِئْتَ فيهِ منَ النعيمِ مُيَسَّرُ
أعداهُ عزُّ الدّينِ منهُ خلائقاً معروفةً لقديمِهِ لا تُنكَرُ
فبجُودِهِ تتدفّقُ الأمواهُ في أرجائِهِ وبيأْسِهِ يُسْتَسْعَرُ

هنا يصف الحمّام بأنّه جنّة نعيمها مُيسَّر للمستحمين، وصفاته أخذها من صاحبه عز الدين؛ فبجوده تتدفق مياهه، وبحزمه تشتغل ناره لتسخن المياه، وتدْفِئ المستحمين.

5- ووصف محمد بن علي الموصلي (من شعراء القرن السابع الهجري) حمّاماً بصفات جديدة، فقال(34):

ضِدّانِ في حمّامكم هذه سُكانُها بينهما قَدْ شُقُوا
كأنّها قلبيَ في حَرِّهِ وماءَها قلبُ الذي أعْشَقُ

(30) البقرة، 50/2.

(31) الشعراء، 65/26-66.

(32) الأنبياء، 68/21-69.

(33) سبط ابن التعاويذي، الديوان، ص219.

(34) ابن الشعار، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان، م6، ج197/7.

إنّها صفة جميلة في صورتها الجديدة، فسكان هذا الحمّام قسمان: قسم يستحمُّ في المياه الحارة مثل قلبه، وقسم يستحمُّ في المياه الباردة مثل قلب من يعشقه.

6- ووصف عبد الملك بن عبد الله الكرابيسي (من شعراء القرن السابع الهجري) حمّاماً حيطانُهُ رخام أصفر، فقال(35):

حمّامُنا اليومَ حَوَتْ نُزْهَةً   يَرى بها الرَّائي عجيبَ العَجَبْ
مياهُها تجري بأحواضِها   كَفِضَّةٍ ذائبةٍ في ذَهَبْ

إنّها صورة جميلة جديدة يرسمها لمياه الحمّام الصافية تجري على الجدر الصفراء، بحيث تبدو للمستحمِّين كالفضة أذيبت في أوعية الذَّهب.

7- ووصف ابن مطروح، يحيى بن عيسى (ت 1251/649)، حمّاماً عمّره الأمير شرف الدين شيخ شيوخ حماة (ت 1263/662)، فقال(36):

حمّامُ مولانا وسيّدنا   شيخُ الشيوخِ صَفا لَهُ العمرُ
تمَّتْ محاسنُها فليسَ بها   للعيبِ لا عينٌ ولا أثرُ
تزهو السماءُ بأنْ حوتْ قمراً   وبكلِّ ناحيةٍ بها قمرُ
قالوا: فَصِفْها، قلْتُ مختصراً   هيَ جنّةٌ وسراجُها عمَرُ

هنا يصف ابن مطروح الحمّام بأنه خال من العيوب، وهو كالبدر في كبد السماء، لا بل في كل زاوية منه قمر، وذلك كناية عن حسن إنارته، ثم يجمل الوصف بأنه جنّة، والذي ينيره هو صاحبه عمر.

(35) ابن الشعار، المصدر نفسه، م3ج108/4.

(36) الصالح، عوض محمد، جمال الدين يحيى بن مطروح؛ حياته وشعره، دراسة وتحقيق، ص312.

8-ووصف الشاب الظريف، محمد بن سليمان (ت 1289/688)، دخوله أحد الحمّامات، وعملية استحمامه فيه، فقال[37]:

مَرَرْنا بحمّامٍ كأنّا بحجّةٍ وقدْ عُقِدَتْ منّا المآزرُ نُحْرِمُ
فلمّا حَلَلْنا منهُ صدْراً كأنّما غدتْ فيه نيرانُ الصّبابةِ تُضرمُ
بكتْ منهُ أجفانُ الأنابيبِ بيْنَنا كأنّا لها اللُّوامُ وهو المتيَّمُ

يصف الشاب الظريف هيئته، وهو يدخل الحمّام بحيث يبدو وهو يأتزر المئزر كالحاج وهو محرم، ثم جلس في صدر الحمّام فاشتعلت ناره، وتدفّقت مياهه عليه وعلى المستحمّين. وقد جاء بهذا الوصف في صورة جميلة بحيث شبّه وجوده في صدر الحمّام، وتدفّق المياه الدافئة عليه، ببكاء العاشق المتيّم عندما يلومه اللوّام.

9- وقد بيّن صدر الدين بن الوكيل، محمد بن عمر (ت 1316/716)، عذره في دخول الحمّام، وأحسن في ذلك، فقال[38]:

ولمْ أَدخل الحمّامَ من أجلِ حَرِّهِ وكيفَ ونارُ الشَّوقِ بيْنَ جَوانحي
ولكنّها لم تكْفني فيضَ عَبْرتي دخلتُ لأبكي من جميع جَوارحي
وليسَ خِضَابا ما بكفي وإنّما مسحتُ به أثرَ الدموعِ السّوافحِ

أتى ابن الوكيل بشيء جديد في هذا العذر، فهو لم يدخل الحمّام للاستحمام والدفء، بل ليبكي معشوقته بجميع جوارحه، إذ يزيد حرّ الحمّام حرّ نار عشقه، وهذا جعله يبكي دماً ظهر على كفيه بعد ما مسح دموعه، فظنّه الراؤون خضاباً، وهو ليس كذلك.

---

(37) صلاح الدين الصفدي، الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، ص405-406؛ الحيمي، مصدر سابق، ص55-56.

(38) الحيمي، مصدر سابق، ص153-154.

يلاحظ مما سبق أنّ وصف الشعراء للحمّامات كان وصفاً مُستقىً من بيئتهم، وفي كثير من الأحيان كانت الأوصاف مكرّرة، لكنّ بعضهم جاء بأوصاف جديدة لأدوات الحمّام ومتعلقاته، وكان ظافر الحدّاد أكثر الشعراء وصفاً للحمّامات، فقد وصف بعض الصور التي كانت تُزيّنُ بها، كما نقش بعض شعره على جُدُرِها. فيما وصف غيره ماءها، ورياضها، وغيرها ممّا يحتاجه المستحمُّ، ويلذُّ به ويسرُّ. وقد أكثر الشعراء في أوصافهم من استخدام المحسِّنات البديعية، ولاسيَّما الطباق، ومن التشبيهات بأنواعها.

ثانياً- وصف أدوات الحمّام ومتعلّقاته

وصف عدد من الشعراء بعض الأدوات الموجودة في الحمّامات، التي يستخدمها المستحمّون في عملية الاستحمام، ومن تلك الأدوات: لباس الحمّام، والجرن، والليف، وحجر الرِّجل، وغيرها، ويتضح هذا كما يأتي:

1- وصف لباس الحمّام

كان المستحمّون يلبسون أنواعاً عدّة من الألبسة في الحمّامات، ومنها المئزر الأبيض الذي وصفه الشاب الظريف، وشبّهه بلباس الإحرام للحاج، قال[39]:

مَرَرْنا بحمّامٍ كأنّا بحجّةٍ   وقدْ عُقِدَتْ منّا المآزرُ نُحْرِمُ

ووصف عبد الباقي بن عبد الله بن أبي حصين (من شعراء القرن السادس الهجري) الزلّي[40]، والمنشفة الروميّة عند دخوله الحمّام، فقال[41]:

---

(39) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص405.

(40) زلية: بساط عادي، من الفارسية (زيلو). انظر: المحبي، قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل، 93/2.

(41) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام، 62/2.

وروميٍّ خلعتُ عليه يوماً ثيابيَ كلَّها مع طَيْلساني
فَلا بالمنْطقِ الروميِّ أثنى عليَّ وقالَ هذا قدْ كَساني
ولا قالَ اشكُروا عنّي فلاناً فإنّي لا يُطاوعني لساني
فعُدتُ لأَخْذِها فتشبّثتْ بي لهُ أُختٌ منَ البيضِ الحسانِ

إنّه يصف ما فعله عند دخوله الحمّام، فقد بادر إلى خلع ثيابه كلها حتى الطيلسان، فكسا هذا الغلام الرومي، لكنّه لم يشكره لا بالرّوميّة، ولا بغيرها من اللغات. ولمّا عاد ليأخذ ثيابه بعد الاستحمام تشبّثت به أُخت له من الزلّيّ.

2- وصف الجرن

الجُرْنُ: حجر منقور يصبُّ فيه الماءُ فيتوضّأُ منه(42). وفي الحمّام هو مصدر الماء الساخن المتدفق للمستحمّين. وقد وصفه الأمير شيخ الشيوخ، في بيتين من الشعر كُتبا على جرن حمّام السلطان، قال على لسان الجرن(43):

كملتُ لُطفاً ووقاراً على ما حُزْتُ منْ أوصافيَ الحلوَه
من أجلِ هذا صِرْتُ أهلاً لأنْ أُجالسَ السُّلطانَ في الخَلْوه

فالشاعر هنا أنطق الجرن، فهو كامل الحسن، لطيف، وقور؛ لذلك أصبح أهلاً لأن يجالس السلطان في خَلْوته بالحمّام. وهذا وصف لطيف جميل.

3- وصف الليف

وهو الأداة الأساسية في فرك جسم الإنسان؛ لتنظيفه من الأوساخ، ويكون غالباً خشن الملمس. وقد وصفه نصير الدين الحمّامي، أحمد بن علي (ت 712/1312)، فقال(44):

(42) انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة جرن.
(43) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص407.
(44) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص407.

لِلّيفِ في تنظيفِ جِسْمِ المستحمِّ مُعجِزَه
فَلا يَغُورُ دَرَنٌ في الجسمِ إلاّ أبْرَزَه
كأنّها ذوائبٌ قدْ شُمِّطَتْ مُحَزَّزَه[45]

هنا يوضّح الشاعر فوائد الليف في تنظيف جسم المستحم، فأية أدران وأوساخ تغور في الجسم يزيلها. وهذا الليف عندما ينظف الجسم يبدو كأنه ضفائر شعر اختلط فيها الأبيض النقي الذي لم تعلق به الأوساخ والأسود الذي علقت به الأوساخ.

4- وصف حَجَرِ الرِّجْل

وهو حجر خشن أبيض، أو أسود، أو أشهب تدلّك به الرِّجل، وبخاصة منطقة عقب القدم؛ لإزالة ما بها من لحم يابس، وخشن، وميت؛ فيحلُّ مكانه جلد جديد، وحيّ، وطريّ، وناعم. وقد وصفه الأمير شيخ الشيوخ، عبد العزيز بن محمد، فقال في حِجَارَةِ رِجْل سود وشُهب[46]:

دُهمٌ وشُهْبٌ راضَها صاحبي بالركضِ في دفع الأذى عنّي
لكنَّ قلبيَ مَلَّ تقريْبَها مُذْ ملأتْ أَعيُنُها منّي

فحجارة حمّامه سود وشُهب روّضها (استخدمها أول مرّة) صاحبه في إزالة الأذى من عقب قدميه، لكنّه نفرَ منها؛ لأنها ملأت ثقوبها من لحم عقبيه.

ووصفه أيضاً نصير الدين الحمّامي، فقال[47]:

لحجَرِ الحمّامِ عندي يدٌ ومنّةٌ لستُ أؤدِّيها

(45) الذوائب: ضفائر الشعر. الشمط: الخلط، وفي الشّعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض، الشيب. الحزّ: القطع من الشيء من غير إبانة. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة ذأب، حزز، شمط.

(46) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص407.

(47) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص406-407.

فهو لرجلي صيقلٌ لم يَحُزْ[48] عن طبْعٍ في الرِّجلِ يُؤذيْها
كأنّهُ كُورةُ نَحْلٍ إذا غمستَهُ في الجرِّ تشبيها[49]

هنا يبيّن الشّاعر امتنانه العميق لحجر الحمّام، ويوضّح فضائله عليه في تنظيف رجليه، فهو ينظفها من دون أن يؤذيها، ويجعلها ملساء ناعمة مثل بيت النحل (كورة نحل) عندما يغمس في جرة عسل النحل.

5- وصف مشط الحمّام

المشط من لوازم الحمّام يستخدمه المستحمّ، لتصفيف شعر الرأس، والذقن بعد الاستحمام. وقد نظم شرف الدين الحلاوي أحمد بن محمد (ت 1258/656) ثلاثة أبيات في وصفه، وكتبت على مشط سلطان حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي (ت 1236/634)، فقال[50]:

حَلَلْتُ من الملكِ العزيزِ براحةٍ غدا لثمُها عندي أجلَّ الفرائضِ
وأصبحتُ مفْتَرَّ الثنايا لأنّني حَلَلْتُ بكفٍّ بحرُها غير غائضِ
وقبّلتُ سامي خدِّه بعدَ كَفِّهِ فلمْ أخلُ في الحالينِ من لثم عارضِ

هنا يشخّص الشاعر المشط، ويُنطقه، فهو عندما أمسكه الملك بكفّه بدأ بلثمها، وابتسم لمكانته من الملك، فكفّه دائمة الجود، ولا ينقطع جودها كأنها البحر، ثم انتقل

(48) الصيقل: شحّاذ السيوف، وجلاّؤها. يَحُزْ: يتحرَّف، ينفرد لأن يقاتل. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة صقل، حرز.

(49) الكورة: بيت يتخذ من قضبان ضيق الرأس للنّحل تُعَسِّلُ فيه. كوارة النحل: عسلها في الشمع. الجرُّ: الجرة، البئر البعيدة القعر. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة كور، جرر.

(50) الغزولي، مصدر سابق، 322/2.

ليقبّل خدّه، وهو في الحالين يبيّن حركته في كفّ الملك ليزيّن شعر رأسه، وعارضيه، وذقنه.

ونظم السَّراج الورّاق، عمر بن محمد (ت 1295/695) بيتين ملغِّزاً في مشط فقال[51]:

وبيـــضاء قـــد عانقتُهـــا وضَـــممْتُها ولا قبحَ في جهري بهــذا وإِســرَارِي
علـــى أنّـــه لا عـــارَ فيهـــا محقّـــقٌ وما ســلمت والله قــطٌّ مــن العــاري

هنا يصف الورّاق مشطاً أبيض، ويشبّه عملية التمشيط بضم العاشــق معــشوقه ومعانقته، وبأنه عندما يخرج من الشعر كأنما هو يجهر بالعناق، وعندما يخفيــه فــي الشعر كأنما هو يسرّ بعمله، ثم يقرّر أنّ ما يقوم به من عمل لا عيبَ فيه ولا عار، مع أن هذا الأمر متداول بين الناس وشائع.

وقد زاد من جمال اللغز استخدام الشاعر التورية في كلمة (العاري) التي تعنــي المجرّد من اللباس، مع كلمة (عار) التي تعني الإثم، ليدل بهما على المشط وهو فــي الشعر وخارجه.

ثالثاً- وصف الحمّامي

الحمّامي: هو الرجل الذي يقوم على راحة المستحمّ منذ دخولــه الحمّــام حتــى مغادرته، فيحفظ ملابسه، ويوفر له المياه الساخنة والباردة، ويدلّك جسمه، ويزيل اللحم اليابس الخشن من كعبي قدميه عند اللزوم، فضلاً عن تنظيف الحمّام، والمحافظة على رائحة طيبة ذكية فيه، وإزالة الأوساخ والصابون المزلق المستعمل من أرض الحمّــام

(51) الغزولي، مصدر سابق، 323/2.

وخارجه، وغيرها من الأعمال[52]. وعدّ الغزالي ترك الحماميّ لمهامه من المنكرات[53].

واشترط في الحمّاميّ توافر صفات عديدة منها: حسن الصورة، والشمائل اللطيفة، والصوت الرخيم، ولطف الأيدي، ورطوبتها؛ لأنه طالما لامس أجساد المترفين التي لا تألف إلاّ الناعم من الثياب، وغيرها من الصفات[54].

وقد وصف عدد من الشعراء الحمّاميّ، وعدّدوا الصفات الحسنة فيه، والمهام التي يقوم بها، وممّن وصف الحمّاميّ:

1- سبط ابن التعاويذي الذي قال يصف حمّامياً اسمه سعيد، ويمدحه[55]:

وَجْهُ سعيدٍ إذا تأمَّلَهُ الذْ نَاظِرُ راقتْ لَهُ محاسِنُهُ
وماءُ حمَّامِه معينٌ فمَا تنْفَكُّ مَمْلوءةً خزائنُهُ
أجادَ وقّادُهُ الوقودَ لَهُ فهو جحيمٌ رِضْوانُ خازِنُهُ

فالحمّاميّ سعيد هنا: حسن المنظر، وماء حمامه وفير، ومعاونه الذي أوكل إليه مهمة تسخين المياه للمستحمين يحسن القيام بعمله، وهو يمثل جهنم في حرارة مائه، لكنّ المسؤول عنه (الحمّاميّ) يمثل رضوان في رأفته بالمستحمين.

2- ووصفه مجير الدين بن تميم، محمد بن علي (ت 1285/684)، فقال[56]:

عانيتُ في الحمّامِ أسودَ واثباً من فوق أبيضَ كالهلالِ المسْفِرِ

(52) انظر: الحيمي، مصدر سابق، ص93-95.
(53) انظر: الغزالي، مصدر سابق، 339/2-340.
(54) انظر: الحيمي، مصدر سابق، ص93.
(55) سبط ابن التعاويذي، مصدر سابق، ص449.
(56) ابن تميم، الديوان، ص107.

فكأنمّـــا هـــو زورقٌ مـــن فـــضّةٍ (قدْ أثقَلَتْـهُ حمولـةٌ مـن عنْبَـرِ)[57]

إنّه حمّامي أسود يقوم بتدليك مستحم أبيض اللون، فَبَدَوا كالهلال في كبد السماء، لا بل هما زورق أبيض (المستحمُّ) مملوءٌ بطيب العنبر (الحمّاميّ). وقد ضمن الشطر الثاني من البيت شطرا من بيت شعر لعبد الله بن المعتز العباسي، وذلك جرياً على ما اعتاده شعراء هذه المرحلة من الإكثار من الاقتباس والتضمين.

3- **أما نصير الدين الحمّاميّ**، فقد احترف مهنة خدمة المستحمّين، ومـن هنـا نسب إليها فعرف بالحمّاميّ، إذ كان يرتزق بضمان الحمّامات، فضلاً عن مهنة النسخ، ومدح الكرام، ولذلك أكثر من ذكر مهنته، ونوّه بها[58]. وممّا قاله في مهنته[59]:

ومـذْ لزمـتُ الحمّـامَ صـرتُ فتـىً بهـا يُـداري مـنْ لا يُداريـهِ
أَعـرِفُ حـرَّ الأشـيا وبارِدهـا وآخـذُ المـاءَ مجاريـهِ

فهو تعلّم فَنّ المداراة حتى لمن لا يداريه، وخلط الماء الحار بالبارد، وفـق مـا يريده المستحمون، ونقل المياه وصبها لهم.

وقال في قطعة ثانية[60]:

لـيْ منـزلٌ معروفـهُ ينهـلُ جـوداً كالسُّحبْ
أقبـلُ ذا العُـذْرِ بـهِ وأُكـرمُ الجـارَ الجُنُـبْ

(57) هذا الشطر هو عجز بيت لعبد الله بن المعتز، صدره: "وانظر إليه كزورق من فضة". انظر: ابن المعتز، الديوان، ص329.

(58) انظر: العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 397/2.

(59) الحيمي، مصدر سابق، ص98؛ سلام، محمد، الأدب في العصر المملوكي، 160/2.

(60) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص406؛ الغزولي، مصدر سابق، 319/2.

فالحمّام هو منزله، وماؤه وفير كالسحب، وفيه يقبل أعـذار المـستحمين، ويزيل جناباتهم.

ولمّا انقطع صديقه الشاعر سراج الدين الورّاق، عن زيارة حمّامه، كتـب إليـه يدعوه لزيارته، فقال[61]:

وكـدّرت حمّـامي لغيبَتِـكَ التـي يُكـدِّرُ مـن لـذّاتها صـفوُ مَـشْرَبي
فما كانَ صدرُ الحوضِ مُنْـشَرِحاً بهـا ولا كـانَ قلـبُ المـاءِ فيهـا بطيِّـبِ

هنا يحثُّ الحمّامي صديقه الورّاق على قطع غيابه عن حمّامه؛ لأن غيبته كدّرت جوّ الحمّام وعكّرته، كما كدّرت مجلس شرابه، ومجلس المستحمين في صالة استقبال المستحمين (صدر الحمّام)، فلم يعد صبّ الماء على المستحمين يطيب له.

وإذا ما عرفنا أنّ الحمّاميّ والورّاق وأبا الحسين الجزّار كـانوا مـن الـشعراء أصحاب الحرف، و كانوا ظرفاء يتطارحون الشعر فيما بينهم، أدركنا أهمية ما قالـه الحمّامي لصديقه الورّاق[62].

رابعاً- الغزل بزوّار الحمّامات

لمّا كانت الحمّامات متنوّعة، ومنتشرة انتشاراً واسعاً، فإن زوّارها كانوا من كلّ فئات المجتمع، وكانت فئة الغلمان منتشرة في المجتمع الإسلامي في مرحلة الدراسة، وكثير من هؤلاء كانوا من الجنس التركي الذي امتاز بجماله، ولا شك في أنهم كـانوا يدخلون الحمّامات إما للاستحمام، أو للخدمة فيها؛ لذلك كـان الـشعراء المـستحمّون يتغزلون بهم.

(61) صلاح الدين الصفدي، مصدر سابق، ص406؛ الغزولي، مصدر سابق، 319/2.
(62) انظر: سلام، محمد، مرجع سابق، 160/2.

كما أن النساء والجواري كُنَّ يَرْتَدْنَ الحمّامات الخاصة بهنّ، أو الحمّامات المشتركة الاستخدام من الرجال والنساء، وذلك في مدة خاصة لكل من الجنسين(63)، وقد كان بعض الشعراء والرجال يتعرّضون لهن على أبواب الحمّامات، أو في الطرقات إليها أو منها، فيتغزلون بهنَّ؛ ولذلك فإنَّ ابن الأُخوة ذكر أن المحتسب كان يطوف الأسواق، ويمنع الناس من الوقوف في مواقف الريب، ومظنّات التهم، التي منها الحمّامات قال: "ويلزم المحتسب أن يتفقد المواضع التي يجتمع فيها النسوان، مثل: سوق الغَزْل أو الكتّان، وشطوط الأنهار، وأبواب حمّامات النساء، وغير ذلك، فإنْ رأى شاباً متعرّضاً بامرأة يكلّمها في غير معاملة في البيع والشراء أو ينظر إليها، عَزّره ومنعه من الوقوف هناك، فكثير منَ الشَّباب الفاسدين يقفون في هذه المواضع، وليس لهم غير التلاعب على النسوان، فمن وقف منَ الشَّباب في طريقهن لِغير حاجة عزّره على ذلك"(64).

وعلى الرغم من عمل المحتسب، فإن الشعراء استرقوا النّظر إلى النساء الحرائر والجواري، ومتّعوا نظرهم بالغلمان، وغازلوهم في الحمّامات، ومن الشعراء الذين تغزّلوا بزوّار الحمّامات:

1- أبو المحاسن الشوّاء الحلبي، يوسف بن إسماعيل (ت 1237/635)، قال في زمرة من الحسان دخلوا الحمّام، فسلبوا عقله، وأثاروا قريحته(65):

شدّوا المآزرَ فوقَ كثبانِ النقا ... بأناملٍ حلّوا بها عقد التّقى
وتجرّدوا فرأيتُ بانَ معاطفٍ ... نشروا ذوائبَهم عليه فأورَقا
وبدَوا فأطلعَ كُلُّ وجهٍ منهمُ ... بدراً فأضحى كلُّ قطرٍ مُشْرِقا

---

(63) انظر: المقريزي، مصدر سابق، 541/2.

(64) ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص82-83.

(65) الغزولي، مصدر سابق، 318/2؛ الحيمي، مصدر سابق، ص159.

وتـــضوّع الحمّـــامُ مِـــسْكاً عنـــدَما فَرَطوا مـــن الأصـــداغِ نظمـــاً مُعْبقـــا
من كلّ أهيــفَ حــلَّ عقــدةَ بنــدِه[66] وغَـــدا بلحـــظِ عُيوننـــا مُتَمَنْطِقـــا

إنه غزل حسيّ رسم فيه الشوّاء الحلبي صورة مادية جميلة لمجموعــة مــن الغلمان وهم يستحمون: فهم يلبسون مآزر على أرداف ضخمة، ثــم تجــرّدوا منهــا، فظهرت أجسامهم اللينة، وشعورهم تنسدل عليهم كالبان المورق، ووجوههم كالبــدور، فأضاءت جوانب الحمّام. ولمّا حلّوا شعر أصداغهم، ومشطوه تضوّعت منهم روائــح المسك الذكية، ثم نشروا مناديلهم، وأخذوا يستعملون حيلهم الحركية لتسلية مَــنْ فــي الحمّام؛ وذلك لخفة حركاتهم، ولين أجسامهم؛ فكانوا يبــدون متحــزِّمين فــي عيــون الناظرين إليهم.

2- **وقال الشاب الظريف من مقطعة،** في غلام له شعر أسود طويل، التقى به في حمّام[67]:

حـــــلَّ ثلاثـــــاً يـــــومَ حَمّامـــــهِ ذوائبـــاً تعبُـــقُ منهـــا الغَـــوالْ[68]
فقلـــــــتُ والقـــــــصدُ ذؤاباتُـــــــهُ يا سَـــهَري فـــي ذي الليـــالي الطّـــوالْ

هنا يصف هذا الغلام عندما حلّ ضفائره استعدادا للاستحمام، فعبقت رائحة طيبه الذكية، وبدت تلك الضفائر طويلة سوداً كالليالي الطويلة المظلمة التي يطــول الــسهر فيها.

3- **وقال ابن تميم،** في غلام مليح خضّب جسمه بالحناء في الحمّام[69]:

---

(66) البند: العلم الكبير. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة بند.
(67) الشاب الظريف، الديوان، ص281.
(68) الغوال: مفرده الغالية: نوع من الطيب مركّب من مسك وعنبر وعود ودُهن. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة غلا.
(69) ابن تميم، مصدر سابق، ص95.

لو كُنْتَ فــي الحمّــامِ والحنّــا علــى أطرافـــــــــه ولجـــــــــسمِهِ لألاءُ
لرأيـــتَ مـــا يُـــسْبِيكَ منــهُ بقامـــةٍ ســـالَ النُّـــضارُ بهـــا وقـــام المـــاءُ

إنه غلام جميل زاد في جماله تخضيبُ أطرافه بالحناء، فتلألأ جـسمه، وسـبى عقول الناظرين إليه بقامته النَّضِرَة، المبلّلة بالماء. وهو هنا رسم صورة جميلة مثيرة. تمثّلت في تشبيه تمثيلي مكّون من صورتين: الأولى (المشبّه) صورة غـلام خـضّب أطرافه بالحناء فتلألأ جسمه. والثانية (المشبّه به) صورة قامت هذا الغـلام المعتدلـة التي يسيل عليها الماء فيبدو كالذهب الخالص رقّةً وصفاءً، فتسبي عيون الناظرين إليه وقلوبهم.

4- وقال محمد بن دانيال الكحّال (ت 1310/710)، قصيدة قصّ فيها ما حـدث معه في حمّام باب الخرق عرفت "بزلقة الحمّام"، حيث تغزّل فيها بأحـد رواده، وقـد التقاه وعشقه(70):

جُزْتُ في خلــوةٍ لحمّــامِ بــاب الــــ خَرْقِ والــصُّبحُ غُــرّةٌ فــي الظّــلامِ
ذا خمارٍ مــن قهــوةِ العــشقِ صــباً ثمـــــلاً مـــن صـــبابةٍ وغـــرامِ
فلقيـــتُ المعـــشوقَ يخطـــرُ لِلدّلْـــــ لِ كَغُـــصْنِ النَّقـــا بلـــينِ القـــوامِ

دخل ابن دانيال حمّام الخرق في الصباح الباكر، وهو سكران من الهيام والعشق، فلقي معشوقه يمشي بدلّ، ويتمايل كغصن البان، ثم عرض عليه مكاناً للجلوس فقال:

قلــتُ ياســيدي إلـــى هـــا هُنـــا قـــا لَ إلـــى هَـــا هُنَـــا بحُـــسْنِ ابتـــسامِ

(70) انظر: أمين، محمد فوزي، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول: 648- 784هـ، ص292- 293 .

فلما اتفقا على المكان، خلع الغلام ملابسه، فقال ابن دانيال يصفه:

لاحَ في ليلتــينِ مــن مئــزرِ الــشّعْــ ـــرِ ومــنْ شَــعْرِه كبــدرِ التّمــامِ
وعَــلاهُ مــن لؤلــؤ الرشــحِ أَســما طُ لآلٍ نثـــراً بغيـــرِ نظـــامِ
حــين نَمّــتْ مكتومــةُ الخــالِ عنْــهُ خبـــراً عـــن عـــذاره النمّـــامِ
أَقْـــسمَ الـــوردُ أنّ خدّيْـــهِ أبهـــى منـــهُ إذ ظلّـــهُ رذاذُ الغمـــامِ

ظهر جسم الغلام من مئزره، وشعره كالبدر في الظلام، وعلى وجهه قطرات الماء، فبدت كحبات اللؤلؤ المنثورة، وفي عذاره خال ظهر من بينها، فاعترف الورد مقسماً أن خدّيه أجمل منه.

ثم يطلب ابن دانيال من الحمّامي أن يعتني به، فيقول له:

قلتُ: سَــرِّح شــعرَ الحبيــبِ بإحــسا نٍ وخلّــص حَبْلــي بهــذا الغُــلامِ

إنه متعجّل لتنفيذ خطّته، فطلب من الحمّاميّ أن يسرح شعره بلطف، وينهي ارتباطه به، وقد أحسن في تضمينه معنى الآية الكريمة ﴿ الطــلاقُ مرَّتــانِ فإمــساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾(71) عندما طلب من الحمّاميّ أن ينهي خدمته للغلام.

ولمّا أنهى الغلام حمّامه، غادر الحمّام، فتبعه ابن دانيال، وتظاهر أنه تعثّر ليعطف عليه الغلام، فكان ما أراد، وغمر الغلام بابتسامة أفاقته من سكره، ونال قبلات منه، ثم نراهُ يشيد بهذه الزّلقة التي جبرت قلبه المكسور بما أنالته من معشوقه، وذلك على الرغم مما سببته له من تكسير عظامه، قال:

وتعثّـــرتُ خلفَـــهُ فـــي خروجـــي والأمـــــاني تـــــزلُّ بالأقــــدامِ
ورآنــــي مُلقــــىً لديــــه صــــريعاً فرقــــاني برقيــــةِ الابتــــسامِ

(71) البقرة، 229/2.

فتجانَنْـــتُ مـــن غرامـــي وقَبَّـــلْ ـــتُ انتهاباً مـــا كـــان تحـــتَ اللّثـــامِ
يـــا لهـــا زلقـــةً جبـــرتُ بهـــا قَلْـــ ـــبـــي وإن كـــسرتْ جميـــع عظـــامي

يلاحظ ممّا سبق أنّ غزل الشعراء كان - في غالبيته العظمى- بالغلمان؛ لأنهم الأكثر وجوداً في حمّامات الرجال، وأنّ ما جاء في النساء هو قطعة واحدة، لعلّ الشاب الظريف قالها في فتاة التقاها في حمّام مشترك في نهاية المدة المخصّصة للنساء. وأنّ الغزل بالغلمان كان غزلاً مادياً. وكان عند الشوّاء الحلبيّ بمنزلة رسم صورة حيّة لما يقوم به الغلمان في الحمّام، وعند ابن دانيال الكحّال كان قصّة عشق جميلة، حبك فيها الشاعر خطّة ناجحة لنيل مبتغاه من غلامه.

خامساً- هجاء الحمّامات

كما وُجِدت حمّامات نظيفة تتوافر فيها كلّ وسائل الراحة والمتعة، التي يطلبها المستحمّون، فمدحها الشعراء، وأشادوا بها، ووجدت حمّامات أقلُّ نظافة لا تتوافر فيها بعض وسائل الراحة أو غالبها، كما أنّ بعض الحمّامات كانت تُسْرقُ منها ملابس المستحمّين(72)، وبعضها الآخر كانت تمارس فيه الفواحش خلسة(73). لذلك قال الشعراء شعراً ذمّوها فيه، وحطّوا من قيمتها، ونفّروا المستحمين من زيارتها، وممّن ذمَّ الحمّامات:

1- ظافر الحدّاد، قال في ذمٍّ حمّام انعدمت فيه الخدمات، والنظافة(74):

وحمّـــامٍ إذا مـــا كنـــتَ فيـــهِ فبـــادرْ بالمذَبَّـــةِ والكِـــساءِ
فهـــذي للبعـــوضِ إذا تغنّـــى وذاكَ يقيـــكَ عاديـــةَ الـــشّتاءِ

(72) انظر: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، ص321.

(73) انظر: ابن الفوطي، المصدر نفسه، ص422.

(74) الحدّاد، مصدر سابق، ص2-3.

وكُنْ مُسْتَصحباً حطباً وقِدْراً لكي تهتمَّ في تسخينِ ماءِ
ولا تتكشَّفَنَّ بها حِذاراً من النَّزلاتِ عن بردِ الهواءِ
ولَوْ أنّي دعوتُ على عدوّي بأَصْعبَ ما يكونُ من الدُّعاءِ
لكانَتْ هذه الحمَّامُ أقْصى نهايةِ ما اقترحتُ من البلاءِ

ينصح ظافر الحدّاد من يدخل هذا الحمّام أن يحتاط بمضرب يقتل به البعوض عندما ينتشر، وكساء ثقيل يقيه برودة الشتاء، وأن يأخذ معه حطباً وقِدْراً لتسخين الماء، وأن لا يكشف جسمه تجنباً لنزلات البرد، ثم يجملُ ذمّه للحمّام فيقول: إنّه لو كان له عدوٌّ، وأراد الدعاء عليه لما وجد أفضل من أن يرجو الله أن يبتليه بدخول هذا الحمّام؛ لأنه سيجد فيه صنوفاً من العذاب كثيرة.

وقال في ذمّ حمّام آخر وهجائه[75]:

حمّامُنا هذه حِمامُ وإنّما صُحِّفَ الكلامُ
أقلُّ أوصافِها ثلاثٌ البردُ والنّتنُ والظلامُ
يلْسعُ بردُ البلاطِ فيها فالنّاسُ في وسَطِها قيامُ
وبين جدرانِها شُقوقٌ يكمنُ في جَوْفها الهوامُ[76]
وللبراغيثِ في نواحي بيوتِها عسكرٌ لُهامُ[77]
ما قَصْدُها في دمٍ ولحمٍ بالعضِّ بل قصدُها العِظامُ
كأنّما سقفُها مِدادٌ يقطرُ من دونِهِ السُّخامُ

---

(75) الحدّاد، مصدر سابق، ص269.
(76) الهوامُّ: ما كان من خشاش الأرض نحو العقارب، الحيّات، وكلّ ذي سمّ يقتُلُ سمُّه. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة همم.
(77) عسكر لُهام: كثير يلتهم كلّ شيء. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة لهم.

والمــــاءُ فيهـــا أقـــلُّ شـــيءٍ   يُـــدركَ بالجهـــدِ أو يُـــرامُ
ولـــيسَ ذا كلُّـــه عجيـــبٌ   فيهـــا بـــل الأعجـــبُ الرُّخـــامُ
يخـــرجُ عنهـــا اللَّبيـــبُ يجـــري   عريـــانَ يحتَثُّـــهُ الهـــزامُ
وهْـــوَ لَعَمـــرْي ممّـــا يـــراهُ   مـــن شـــدّةِ الهـــولِ لا يُـــلامُ

إنّ هذا الحمّام هو الموت بعينه؛ إذ خلا من كل الخدمات التي تقدّم في الحمّــام، وانعدمت فيه كل صفات الحمّام حتى المياه، كما أنه حمّام بارد، وذو رائحة كريهــة، ومظلم، وجدره مشقّقة، ومليئة بالحشرات، والبراغيث تنتشر في كل جنباتــه، وســقفه يقطر سخاماً أسود كالحبر، وماؤه قليل جداً. والأعجب من كل ذلك أنّ رخامه مرعب مفزع بحيث يخرج المستحم من عُريانا لشدّة فزعه، فلا يلام على فعله لهولِ مــا رآه فيه.

والواضح أن الحدّاد رسم صورة كاريكاتيرية مرعبة لهذا الحمّام، وهي مــشكّلة من عدّة لوحات جزئية، كلّ واحدة منها تصلح أن يتشكل منها صورة منفصلة.

2- الناجي المصري (من شعراء القرن السادس)، قال يذمّ حمّاماً[78]:

حمّامُنـــا هـــذا أشـــدُّ ضـــرورةً   ممَّـــنْ يحـــلُّ بـــه إلـــى حِمـــامِ
تبـــيَضُّ أبـــدانُ الـــورى فـــي غيْـــرِهِ   ويُعيْرُهـــا هـــذا ثيـــابَ سُـــخامِ
قدْ كنـــتُ مـــن ســـامٍ فحـــينَ دخلتُـــهُ   لِـــشقاءِ جـــدِّي رَدَّنـــي مـــن حـــامِ

إنه حمّام يقود صاحبه إلى الموت لسوئه، والأبدان فيه تخرج سوداً فيما في غيره تخرج بيضاً، وهو يقول ذلك عن تجربة، إذْ دخله ليستحمّ، وكان أبيض اللون، فخــرج منه أسود اللون كأنه من أبناء حام بن نوح عليه السلام. وذلك كله لسوء حظه.

(78) ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص331.

3-فتيان الشاغوري، فتيان بن علي (ت 1218/615)**، قال يذمُّ حمّاماً دخلـه، وهو طاعن في السن، ووجد ماءه شديد الحرارة**[79]:

أرى مـــاءَ حمّـــامِكم كـــالحميم نُكابـــدُ منـــه عنَـــاءً وبُؤْســـا
وعهـــدي بكـــم تُـــسمِّطونَ الجـــدْ يَ فَمــا بـــالُكم تـــسمّطونَ التُّيوســـا

فهو يذم الحمّام بأن ماءه شديد الحرارة، حتى شبه الشاعر حرارة الماء، وكأنّهـا أعدّت لنتف صوف التيوس تمهيداً لِشَيِّها في النار، لا للاستحمام.

4- ابن أبي المعالي، محمد بن عبد القاهر (ت1236/634)، قال يذمُّ حمّاماً[80]:

إنّ حمّامَنَـــا الحمَـــامُ لمـــنْ را مَ نعيمــاً مــنْ غيْــرِ ضُــرٍّ وبُــؤسِ
هـــيَ مثـــلُ المـــوتِ المُـــنَغّصِ للَّـــذا تِ بـــينَ بَـــرْدٍ ويُـــبْسِ

هنا يجعل الشاعر الحمّام التي دخلها الموت عينه لمن يبحث عن النعيم (الحمّام) من غير مشقة مادية، وهي الموت منغّص اللذّات، وهادمها بما فيها من برد، وجفاف أجواء.

5-الأمير شيخ شيوخ حماة، قال يذمُّ حمّاماً دخله[81]:

وحمّـــامٍ قليـــلِ المـــاءِ داجٍ وفيـــه ألـــفُ شـــيطانٍ رجـــيمِ
ولا غيْـــرَ المـــزاحمِ مـــنْ رفيـــقٍ ولا غيـــرَ المـــدامعِ مـــنْ حمـــيمِ
طلَبْنـــا مـــاءَه (فَحنـــا علينـــا حنوَّ المرضـــعاتِ علـــى الفطـــيمِ)[82]

(79) الحيمي، مصدر سابق، ص76-77. ونسب البيتان لكمال الدين الإبري في: ابن الفوطي، مصدر سابق، ص428.

(80) ابن الشعار، مصدر سابق، م6ج202/7.

(81) الحيمي، مصدر سابق، ص80-81.

(82) أصل البيت للشاعرة الأندلسية حمدة (حمدونة) بنت زياد العوفية، وهو:

ونقّطنـــا برشـــحٍ بعـــدَ رشـــحٍ كمـــصٍّ مـــن أبـــاريقِ النـــدّيمِ
يـــسدُّ الحـــرَّ عنّـــا فـــي شـــتاءٍ فيَحْجبُـــهُ ويـــأذنُ للنـــسيمِ
يَـــروعُ بَهولْـــهِ مَـــنْ حـــلَّ فيـــه فيحـــسَنُ أنّـــهُ هـــولُ الجحـــيمِ

الشاعر في هذه الأبيات يهجو حمّاماً دخله قائلاً: إنه قليل الماء، ومظلم، ومليء بالشياطين، ولا يوجد فيه رفيق يقوم على خدمة المستحمين إلا من يزاحمون على الاغتسال، ولا يوجد فيه ماء ساخن سوى دموع المستحمين، ثم إن ماءه من قلّته يرشح رشحا، وهو في الشتاء بارد. وعلى كل الأحوال فالحمّام الذي يذمّه الشاعر يخيف المستحمين كأنه الجحيم. وفي ذلك تهكم وذم لهذا الحمّام من خلال رسم صورة كاريكاتيرية مرعبة مركبّة من عدّة صور جزئية.

6- شمس الدين الكوفي، محمد بن عبيد الله (ت 1276/675)، قال يذمّ برودة حمّام المستنصريّة ببغداد[83]:

ولـــو أنَّ أيـــوبَ فـــي عـــصرنا وقـــدْ مـــسَّهُ بـــالأذى البـــاردُ
لجـــاءَ إلينـــا فَحمّامُنـــا شـــرابٌ ومغتَـــسَلٌ بـــاردُ

الشاعر هنا يذمّ برودة هذا الحمّام ضارباً مثلاً على شدّة برودته من قصة نبي الله أيوب عليه السلام، إذ إنّه لو جاء في هذا العصر إلى هذا الحمّام وقد أصيب بالأذى (القروح) لوجد بغيته في حمّام المستنصرية. وفي ذلك ذمٌّ جاء على صيغة

حَلَلْنا دوحَهُ فَحنَا علينا حُنوّ المرضعات على الفطيمِ.
انظر: الحموي، معجم الأدباء، 276/10.

(83) ابن الفوطي، مصدر سابق، ص427. والمستنصرية مدرسة بناها الخليفة المستنصر بالله منصور بن الظاهر بأمر الله محمد (ت 1242/640)، وبنى فيها مارستانا وحمّاماً، ووقفها على المذاهب الأربعة، وهي على عهد ابن العماد الحنبلي ليس في الدنيا مثلها، وهي بالعراق كجامع دمشق. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 209/5.

التهكم بإظهار برودة الحمّام وعدم صلاحيته. وفي الشطر الثاني من البيت الثاني اقتباس من قوله تعالى﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتسلٌ بارِدٌ وشَرابٌ ﴾(84).

7-كمال الدين بن الأعمى، علي بن المبارك (ت 1292/692)، قال يذمُّ حمّاماً، فرسم له صورة غريبة(85):

إنّ حمّامنا الذي نحنُ فيه قدْ أناخَ العذابُ فيه وخيَّمْ
مظلمُ الأرضِ والسّما والنواحي كلُّ عيْبٍ من عيبهِ يتعلَّمْ
حَرِجٌ بابُهُ كطاقةِ سجنٍ شهدَ اللهُ منْ يجُزْ فيه ينْدَمْ

هنا يرسم ابن الأعمى صورة مخيفة للحمّام، فهو مكان للعذاب لا للنعمة، ومظلم في كلّ شيء، وكله عيوب، وبابه ضيّق كطاقة السجن، وكل من يدخله يندم.

8- المحار الحلبي، عمر بن مسعود (ت 1311/711)، قال يذمّ حمّاماً خَرِب نصفها(86):

سُحقاً لحمّامِ الأميرِ التي رقّتْ بها منْ بعْدِه الحالُ
حَلَّ بها الفالجُ من بردِها فجَنْبُها الواحدُ بطّالُ

إنّه يدعو عليها بالدمار والاندثار، هذه الحمّام التي بعد خراب نصفها سبّبت له الفقر. ويشبهها وقد خرب نصفها بالرجل المفلوج، وذلك في صورة جديدة غريبة.

نستنتج مِمّا قاله الشعراء في هجاء الحمّامات، أنَّ هجاءهم توزع على هجاء البناء، وموجوداته؛ ففي البناء ذكروا: ضيق الباب، وبرودة البلاط، وتشقّق الجدر، وسواد السقف والرخام، والخراب. وفي الموجودات: انتشار البعوض، والحشرات

---

(84) سورة ص، 42/38.
(85) الحيمي، مصدر سابق، ص81.
(86) الحيمي، مصدر سابق، ص83.

والعقارب، وقلّة الماء، وبرودته، أو شدّة سخونته. وظلام الحمّام، ورائحته الكريهة، وانعدام نظافته، وغيرها. وكانت ألفاظهم سهلة واضحة، وتشبيهاتهم مستقاةٌ من بيئتهم، وظهر بوضوح تأثرهم بالمعاني الدينية الإسلاميّة.

سادساً- هجاء الحمّاميّ

قال عدد من الشعراء شعراً في هجاء الحمّامي، عندما وجدوه لا يقوم بالواجبات الموكلة إليه على خير وجه، أو عندما لم يجدوا فيه بعض الصفات التي يطمحون أن تكون فيه.

وقد درست ما قالوه في ذمِّ الحمّاميّ، وهجائه على النحو الآتي:

1- سبط ابن التعاويذي مقطوعتين وقصيدة في هذا، فقال في هجاء حمّاميّ يدعى يحيى بن بختيار(87):

وَجْهُ يحيى ابن بختيارَ إذا فكَّرْتَ فيه مِنْ سائرِ الأنحاءِ
مثلُ حمّامهِ المشومِ سواءٌ مظلمٌ باردٌ قليلُ المَاءِ

فهو يهجوه بِسَلْبِه الصفات الحسنة المفروض وجودها في الحمّامي، إذ وجهه أسود ، وبارد لا حيوية ولا انشراح فيه، ولا يخجل، وهو في ذلك صورة طبق الأصل عن حمّامه.

وقال يهجو حمّاميّاً يدعى ميمون(88):

لميمونَ وجهٌ يَسوءُ العيُونَ منظرُهُ الأسودُ الحالكُ
وحمَّامُهُ مظلمٌ باردٌ يضلُّ بأرجائهِ السّالكُ

---

(87) سبط ابن التعويذي، مصدر سابق، ص14-15.

(88) سبط ابن التعاويذي، مصدر سابق، ص321.

وهَـــبْ أنَّ حمّامَــــهُ جنّــــةٌ ألــيسَ علـــى بابـــهِ مالـــكُ

هنا يهجو الحمّامي ميموناً بأنّ وجهه أسود، شديد السواد، لا يحبّ المستحمّون النظر إليه، وحمّامه مظلم بارد يضيع فيه المستحمّون، حتى ولو افترض جدلاً أن حمامه جنة، فإنه لا ينصح بدخوله؛ لأن خادمه مثل مالك خازن جهنم.

وقال من قصيدة هجا فيها حمّامياً[89]:

وبـــه قـــيّمٌ بغـــيضٌ غلـــيظٌ عـــابس الوجـــهِ قـــالِصُ المنخـــرينِ
قـــيِّمٌ غيـــرُ قـــيِّمٍ خـــشُنَتْ مُـــدْ يَتُـــهُ وهـــو نـــاعمُ الكفَّـــيْنِ
بيَـــدٍ كـــالحريْرِ لا يرفـــعُ الأَوْ ســـاخ تـــدليكُها عـــنِ المنكبـــينِ
ويـــدٍ كرُّهـــا يغـــادرُ فـــي النّـــا سِ كُلومـــاً شُـــلّتْ إذاً مـــن يـــدينِ
فخذوا لـــي منـــهُ القِـــصاصَ فقـــدْ أَوْ بقَنـــي بـــالجرَاحِ فـــي الأَخْـــدَعينِ[90]

هنا يرسم الشاعر للحمّامي صورة كاريكارتيريّة منفّرة جداً، فوجهه كله عيوب، ويداه واحدة ناعمة لا تزيل الأوساخ، وأخرى بها سكين يجرّح أجساد المستحمّين فيها، ثم إنّه قتل الشاعر من أخدعيه بأن قطعهما؛ لذلك يطلب من أصحابه ايقاع القِصاصَ بهِ.

2- ابن أبي الأُصبُع، عبد العظيم بن عبد الواحد (ت 1256/684)، قال يذمُّ حمّامياً[91]:

وقـــيّمٍ كلّمـــتْ جـــسمي أناملُـــهُ بغيـــر ألْـــسنةٍ تكلـــيمَ خُرصـــانِ[92]

(89) سبط ابن التعاويذي، مصدر سابق.، ص450.

(90) الأخدعان: عرقان خفيّان في موضع الحجامة من العنق. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة خدع.

(91) ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص320. وفي الغزولي، مصدر سابق، 321/2، نسبت هذه الأبيات إلى الأمير شيخ شيوخ حماة.

(92) الخرصان: القضبان، سنان الرمح. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة خرص.

إنْ أمسكَ اليَـد منّـي كـادَ يخلَعُهـا   أو سرَّحَ الشّعْر بعـد الغـسلِ أبكـاني
فليسَ يمْـسِكُ بـالمعروفِ منـه يـداً   ولا يـسرِّحُ تَـسْريحاً بإحـسانِ

هنا يجعل ابن أبي الإصبع هذا الحمّاميّ لا يعرف أصول مهنته، فهو لا يحسن التدليك، ولا كيفيّة الإمساك بأعضاء الجسم، ولا بحسن تسريح الشعر بعد الحمّام. وقد أتى بذلك كله في تشبيه جميل استمدّه من قوله تعالى ﴿ الطلاقُ مرّتانِ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريح بإحسانِ ﴾[93]

ومما سبق لاحظت أنّ هجاء الشعراء للحمّاميّ توزّع على أمرين: صفاته الخَلْقية، وعدم اتقانه عمله الموكل إليه.

وعلى الرغم من كلّ ما قاله الشعراء في الحمّامات؛ مدحاً وهجاء، إلاّ أنّ بعض الشعراء قدّموا نصائح أخلاقية لمرتادي الحمّامات، منها قول ظافر الحدّاد[94]:

لا يكشفُ المرءُ في الحمّـامِ عورَتَـهُ   إلا لحـالين: فَقـدِ العقـلِ والـدّينِ
لـورامَ ذلـكَ منـهُ أمـرُ مغتـصبٍ   في السوقِ بـالقهْرِ والتهديـدِ والهـونِ
لكـانَ يبـذلُ عـنْ إظهـارِ عورتِـهِ   ما حـازَ، لـو أنّهـا أمـوالُ قـارونِ
وحالـةُ الـسّوقِ والحمّـامِ واحـدةٌ   والفـرقُ فـي ذاكَ معـدومُ البـراهينِ
فما لَهُ في انتهاكِ السّترِ قد نقضَ الـ   ـحالينِ مـا بـينَ تقبـيحٍ وتحـسينِ

هنا يَنْهى ظافر الحدّاد المستحمّين بأسلوب وَعْظيّ مقنع عن كشف عوراتهم في الحمّامات، وهذا النّهي لا شك في أنّه أثرٌ جاء به من آراء الفقهاء التي حرّمت كشف العورات في أي مكان، ومنها الحمّامات.

(93) البقرة، 229/2.
(94) الحدّاد، مصدر سابق، ص315-316.

الخاتمة

توصّلت في هذه الدراسة إلى نتائج عدّة أهمها:

1- إنّ الحمّامات كانت مظهرا عمرانيا وحضاريا شائعا بين عامة الناس وخاصــتهم على حدٍّ سواء، لذلك أقبل كثير من الشعراء على وصفها، ما شــكّل موضــوعاً شعرياً جديداً يحتاج إلى دراسة مستقلة أوسع من هذه الدراسة.

2- إنّ شعر وصف الحمّامات كان مستقىً من بيئة الــشعراء، وأكثــروا فيــه مــن التشبيهات، ورسم الصور الحيّة بحيث كانت مريحة للنفس في مدح الحمامــات، ومنفرّة لها في ذمّها.

3- إن الشعراء أكثروا في شعرهم من الاقتباس من القرآن الكريم والــسنّة النبويّــة، ومن المحسنات البديعية.

4- إن غزل الشعراء في زوّار الحمّامات كان غزلاً مادياً، كما ركّزوا فــي هجــاء الحماميين على سوء صفاتهم الخَلْقية، وعدم إتقانهم أعمالهم.

المصـــادر والمراجــع

أولاً- المصـــادر

القــرآن الكريــم

1. ابن الأخوة، محمد بن محمد (1976)، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيــق محمد شعبان وزميله، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. ابن تميم، محمد بن علي (1999/1420)، **الديوان**، حقّقه هلال ناجي وزميلــه، ط1، عالم الكتب. بيروت.
3. ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم (د.ت.)، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمــد بــن تيمية**، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد وابنه.
4. ابن جبير، أحمد بن جبير (د.ت.)، **تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروف برحلة ابن جبير**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري. القاهرة.
5. الحدّاد، ظافر بن القاسم (1969/1389)، **الديوان**، تحقيق حسين نصّار، مكتبــة مصر. القاهرة.
6. الحيمي، أحمد بن محمد (1986/1406)، **حدائق النمّام في الكلام على ما يتعلق بالحمّام**، تحقيق عبد الله الحبشي، ط2، الدار اليمنية.
7. ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق (1988/1408)، **العمدة فــي محاســن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة. بيروت.
8. سبط ابن التعاويذي، محمد بن عبيد الله (1903)، **الديوان**، اعتنى بنسخه وتحقيقه د.س. مرجليوث، مطبعة المقتطف. مصر.
9. ابن سعيد، علي بن موسى (2000)، **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القــاهرة**، تحقيق حسين نصار، ط2، دار الكتب المصرية. القاهرة. (دار الكتب والوثــائق القومية: مركز تحقيق التراث) .

10. الشاب الظريف، محمد بن سليمان (2004/1424)، الديوان، قدّم له وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري، دار الكتاب العربي. بيروت. (شعراؤنا).
11. ابن شداد، محمد بن علي (1991)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق يحيى عبارة، ط1، وزارة الثقافة. دمشق. (إحياء التراث العربي: 78).
12. ابن الشعار، كمال الدين المبارك (2005/1426)، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان**، تحقيق كامل الجبوري، ط1، دار الكتب العلمية. بيروت.
13. الشوكاني، محمد بن علي (د.ت)، **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار**، تحقيق نصر واصل، المكتبة التوفيقية. القاهرة.
14. صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك (1999/1420)، **الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه**، حقّقه وعلّق عليه هلال ناجي وزميله، ط1، ليدز (بريطانيا). (سلسلة اصدارات الحكمة:4).
15. علي بن ظافر (1992/1413)، بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
16. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد (د.ت.)، **خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام**، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية. دمشق. (مطبوعات المجمع العلمي العربي).
17. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي (د.ت.)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الفكر. دمشق.
18. الغزالي، محمد بن محمد (د.ت.)، **إحياء علوم الدين، وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار**، دار المعرفة. بيروت.

19. الغزولي، علي بن عبد الله (2000/1419)، **مطالع البدور في منازل السرور**، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

20. ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (1997)، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، تحقيق بشار معروف وزميله، ط1، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

21. المحبي، محمد الأمين (1994/1415)، **قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل**، تحقيق وشرح عثمان الصيني، ط1، مكتبة التوبة. الرياض.

22. ابن المعتز، عبد الله (د.ت.)، **الديوان**، شرح يوسف فرحات، دار الجيل. بيروت.

23. المقريزي، أحمد بن علي (1998)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق محمد زينهم وزميلته، مراجعة أحمد زيادة، ط1، مكتبة مدبولي. القاهرة.

24. ابن منظور: محمد بن مكرم (د.ت.)، **لسان العرب**، دار صادر؛ بيروت.

25. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (1980/1400)، **معجم الأدباء**، ط3 منقحة ومصححة وفيها زيادات، دار الفكر. دمشق.

ثانياً- المراجع

1. أمين، بكر شيخ (1979/1399)، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، ط2، دار الآفاق الجديدة. بيروت.

2. أمين، محمد فوزي (1982)، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول: 648- 784هـ**، دار المعارف. القاهرة.

3. الحسين، قصي (2004/1455)، **الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني**، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب. طرابلس الشام.

4. حمزة، عبد اللطيف (1968)، **الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيــوبي والمملوكي الأول**، ط8، دار الفكر العربي. القاهرة.
5. سلام، محمد زغلول (د.ت.)، الأدب في العصر المملوكي: الدولة الأولى (648-783هــ)، دار المعارف. القاهرة. ج2.
6. الصالح، عوض محمد (1995)، **جمال الدين يحيى بن مطروح؛ حياته وشعره، دراسة وتحقيق**، ط1، منشورات جامعة قار يونس. بنغازي.
7. ضناوي، سعدي (2004/1424)، **المعجم المفصل في المعرب والدخيل**، ط1، دار الكتب العلمية. بيروت.
8. العارف، عارف (1996)، **المفصل في تاريخ القدس**، ط4، مكتبــة الأنــدلس. القدس.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2008/10/19.